سورة الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

الأَنفَالِ: غنائم بدر .

للهِ وَالرَّسُولِ: مفوض إليهما أمرهما .

ذَاتَ بَيْنِكُمْ: احوالكم التي يحصل بها اتصالكم .

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ: فزعت ورقت استعظاما وهيبة.

يَتَوَكَّلُونَ: يعتمدون وإلى الله يفوضون .

نزلت سورة الأنفال في أعقاب غزوة بدر التي وقعت في السنة الثانية من الهجرة ، وقد عاد المسلمون من هذه المعركة منتصرين حائزين على غنيمة وافرة، بيد أن هذه الغنائم كانت فعلاً في حيازة جماعةٍ واحدةٍ ، مما أدي إلى حدوث الاختلاف والتنازع على تقسيمها بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، فقد كانت جماعة من المقاتلين المسلمين في مؤخّرة الجيش، بينما كان جماعة أخرى قائمة على حراسة رسول الله ﷺ مخافة أن يصل إليه العدو، وانطلقت طائفة منهم، عند الجولة الأخيرة من المعركة، في آثار العدو

تطارده، وهكذا فإن فرصة جمع الغنائم والأسلاب لم تتهيأ إلا لفريقٍ معينٍ، أما الآخرون سواهم، الذين كانوا إذ ذاك على بعدٍ عن ساحة القتال، فلم يتمكنوا من الحصول على شيءٍ مما تركه العدو الهارب مهزوماً من مالٍ أوْ متاعٍ.

وكانت النتيجة أن جميع المشاركين في الحرب كانوا يحسبون - مبدئياً - أن لهم نصيباً في هذه الغنائم سواء بسواءٍ، ولكن أموال الغنيمة هذه لم تكن فعلاً إلا في حيازة طائفةٍ واحدةٍ، فقد كان لدى أحد الفريقين الدليل، ولدى الفريق الآخر المال، وكان الأول لا يملك لإثبات حقه سوى الكلمات، بينما كان حق الأخير مستمدًا من واقع الاستيلاء غير مستندٍ إلى أي دليلٍ أوْ برهانٍ.

إن كل النزاعات من هذا النوع تتنافى مع الخوف من الله، فإن خوف الله يبعث في داخل المرء الشعور بالمسئولية، ومن ثم فاهتمام رجلٍ كهذا ينصب على الواجبات دون الحقوق، وهو يبدأ ينظر إلى الله بدلاً من النظر إلى نفسه، ولا يلبث قلبه أن يلين لطاعة الله ورسوله، ويصبح عبداً عابداً لله تعالى، وهو يجد السكينة في أن يعطي الناس وليس في أن ينتزع منهم، وهذه صفات تولد في نفس المرء مادة الواقعية واعتراف الحق، وفي بيئةٍ يسودها الواقعية والاعتراف بالحق تنعدم وتتلاشى كل النزاعات الداخلية، ولو أنها استيقظت يوماً بطريق الصدفة، فإنما يكفي لإصلاحها وتسويتها أن يتم تنبيه المتنازعين مرةً واحدةً فقط. إن الحذر من بطش الله وعقابه يقود الكل إلى الحد الذي ينبغي عليه أن يقف عنده ولا يتخطاه، وحيث صار الجميع راضياً بالوقوف عند حده الواقعي، فلا مجال هناك لأي نزاعٍ أوْ خلافٍ البتة.

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ

وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

الطَّائِفَتَيْنِ: هما العير والنفير .

ذَاتِ الشَّوْكَةِ: ذات السلاح والقوة ، وهي النفير .

دَابِرَ الكَافِرِينَ: آخرهم والمراد جمعيهم.

في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة، ذاع الخبر أن عيراً لقريشٍ تنصرف من مشارف الشام عائدةً إلى مكة، وهي تحمل معها من البضائع ما قيمته نحو خمسين ألفاً من الدنانير ، وقد كان طريقها يمر بالقرب من المدينة ، وكان من المحذور أن يقوم المسلمون بالهجوم على عير عدوهم، فما لبث أبو سفيان بن حرب، رئيس القافلة، بعدما شعر بذلك، أن أرسل إلى أهل مكة يستحثهم على المسارعة إلى حماية أموالهم من أن يصير نهباً وغنيمةً للمسلمين ، ولم يكد يصل هذا الخبر إلى مكة حتى بدأت تغلي حميةً وحماساً من أقصاها إلى أقصاها ، فانطلق تسعمائة وخمسون راكباً، بينهم ستمائة مدرّعٍ، من مكة متوجهين نحو المدينة.

وكانت هذه الأنباء كلها تترامى إلى الرسول ﷺ وقد كان **المسلمون بين أمرين** : القافلة التجارية الهابطة من الشام، وجيش المقاتلين القادم من مكة نحو المدينة ، وقد رأى بعض المسلمين أن يزحفوا نحو العير، إذْ لم يكن عدد الحارسين لها يربو على أربعين رجلاً ، مما يسهل لهم أن يتغلبوا عليهم، ويستولوا على ما لديهم من ذخائر ونفائس ، على أن خطة الله جل شأنه كانت غير هذا.

فقد كانت مشيئة الله تتمثل أصلاً في كسر شوكة المنكرين للحق، وليس في الحصول على بعض الفوائد الاقتصادية ،وقد أخرج الله جميع زعماء الشرك المعارضين للإسلام بإيجاد ظروفٍ خاصةٍ، وأوصلهم إلى ((بدر)) على بعد عشرين ميلاً من المدينة، حتى يقع بينهم وبين المسلمين صدام يسفر عن القضاء عليهم إلى الأبد !! وحين أطلع رسول الله

أصحابه على خطة الله هذه، اتفقت كلمة الجميع على التقدم نحو بدر ، ومع أن عددهم لم يكن يزيد على ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، كما أن السلاح والعتاد الحربي أيضاً لم يكن لديهم إلا قليلاً ، إلا أن الله تعالى أمدهم بنصرٍ خاصٍ مكنهم من أن يهزموا جنود قريشٍ شر هزيمةٍ؛ حيث قُتل سبعون من صناديدهم ووقع سبعون آخرون منهم أسرى بأيدي المسلمين ،وتحول ميدان بدرٍ إلى ميدان انتصار الإسلام على الكفر.

وإنه كلما وجدنا أنفسنا بين خيارين : أحدهما يقود إلى المنفعة المادية، والآخر يتضمن المنفعة الدينية، فإن هذا التقسيم دليل في حد ذاته على أن مشيئة الله إلى جانب المنفعة الدينية، وليست إلى جانب المنفعة المادية. إن الكفاح الإسلامي لا يستهدف أبداً الفائدة الاقتصادية، وإنما يكمن هدف الكفاح الإسلامي دوْماً في كسر شوكة الباطل وفل حديده، سواء تحقق ذلك بالقوة النظرية أو بالقوة المادية إذا سمحت الظروف باستخدامها.

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ: يجعله غاشيا عليكم كالغطاء .

أَمَنَةً مِّنْهُ: أمنة منه وتقوية لكم .

رِجْزَ الشَّيْطَانِ: وسوسته وتخويفه إياكم من العطش .

وَلِيَرْبِطَ: يشد ويقوي باليقين والصبر .

أَنِّي مَعَكُمْ: معينكم على تثبيت المسلمين .

الرُّعْبَ: الخوف والفزع .

كُلَّ بَنَانٍ: كل الأطراف أو كل مفصل .

شَاقُّوا: خالفوا وعصوا.

وقعت غزوة بدرٍ في ظروفٍ بالغة الخطورة ، حيث لم يكن عدد المسلمين في مواجهة نحو ألف مقاتلٍ مدججٍ بالسلاح من العدوّ، سوى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً؛ مضافاً إلى قلة ما كان لديهم من سلاحٍ وعتادٍ ، كما أن جيش العدو كان قد سبقهم إلى بدر - موقع القتال - فاحتل هناك مكاناً أفضل، واستولى على عيون المياه ، ونظراً لمثل هذه الأحوال لم يلبث المسلمون أن بدأت تتردد في قلوبهم الوساوس بأن الرسالة التي من أجلها هم يعرضون حياتهم للضياع والخراب، عساها ألا تكون منطويةً على نصر الله وعونه ، ولو أنها كانت رسالةً حقةً، لما كان الله ليخذلهم ويتخلى عنهم في موقفٍ حرج كهذا.

ولما كانت أزمة الأسباب كلها لتنفلت من أيديهم وتقع في قبضة الأعداء وحينئذٍ أنزل الله - سبحانه وتعالى - مطراً غزيراً بمنطقة بدرٍ، فاتخذ المسلمون بدورهم حياضاً ملؤوها بماء المطر. إن العدو كان قد حرم المسلمين من مياه الأرض، فوفر الله لهم - بدلاً من ذلك - ماءً طهوراً من السماء.

كما أن الله - سبحانه وتعالى - تفضل على المسلمين بنعمةٍ أخرى غير عاديةٍ بأن غمرهم بنومٍ هادئٍ مريحٍ ، حيث إن النوم لابد منه لكي ينتعش المرء ويتجدد نشاطه وحيويته. غير أن أجواء الحرب تكون فظيعةً ومروعةً لدرجة أن نوم المرء يطير ،

وبالرغم من ذلك فقد نصر الله المسلمين نصراً خاصاً بأن ألقى عليهم النوم في الليلة التي سبقت يوم المعركة؛ فناموا هادئي الأعصاب فارغين من أي نوعٍ من القلق الذهني والنفسي ، واستيقظوا في صباح اليوم التالي وقد انتعشت صدورهم، وتجدد نشاطهم وحيويتهم تجدداً كاملاً.. فالظروف والملابسات التي كانت تتسبب في بعث الوساوس في نفوس المسلمين، أوجد الله فيها إمكانياتٍ عملت على شحن أفئدتهم باليقين والثقة الجديدين !!

إن الشيء المطلوب من أهل الحق عند لقاء قوى الباطل هو الثبات والصمود ، فلا ينبغي أن تتزلزل أقدامهم أوْ يتسرب الضعف والوهن إلى قلوبهم أبداً، مهما اكفهرّ الجو واشتد الظّلام ،، والمكافأة العاجلة التي ينالونها من عند الله على صمودهم هذا هي أن يتم إلقاء الرعب في قلوب أعداء الحق، ومن ثم لن يُنجيهم شيء من الهزيمة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

زَحْفاً: جيشا زاحفا نحوكم لقتالكم.

مُتَحَرِّفاً: مظهرا الفرار خدعة ثم يكر .

مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ: منضما اليها ليقاتل العدو معها.

بَاءَ بِغَضَبٍ: رجع متلبسا به مستحقا له.

الصراع بين الإسلام والكفر حين ينتهي إلى ميدان القتال فكأنما يكون ذلك ساعة القضاء الحاسم لكلا الفريقين ، وفي لحظةٍ خطيرةٍ كهذه لو أن شخصاً أو جماعةً ما، ولّت هاربةً من حومة القتال، فقد اقترفت جريمةً أشنع ما تكون ، فإن هذا الشخص قد اعتبر الحفاظ على حياته أكثر أهميةً من الحفاظ على الحق؛ وفضّل ذاته على هدفه، ثم

للنتيجة الفورية ، بينما هو ينجذب تلقائياً، تحت العوامل غير الشعورية العاملة في داخله، نحو أشياء يكون القيام بها - على ما يبدو - مبعث أملٍ في الوصول الفوري إلى قمة المجد والنجاح. إن كل انحرافٍ من هذا النوع، لا يختلف، من حيث حقيقته، عمّا أطلقت عليه الآيتان الواردتان هنا ((التولي أو الفرار من الزحف)).

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

تفيد الروايات أنه لما حمي وطيس الغزوة ببدرٍ، رفع النبي ﷺ يديه إلى السماء، وقال فيم دعا به ربه ((.. يا رب ! إن تُهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض أبداً)).. ثم أخذ ﷺ قبضةً من التراب، ورمى بها في وجوه المشركين قائلاً : ((شاهت الوجوه)) . وقد أصبح جيش الكفار من بعد ذلك كما لو وقعت الحصباء في عيون الجميع، فأقبل المسلمون يقتلون منهم من شاؤوا، ويأسرون من شاؤوا بتمام السهولة. لقد تكفل الله - سبحانه وتعالى - بأن يمد أهل الإيمان الصادقين بنصره، فمهما تآمر أعداؤهم ضدهم، فإن الله يبطل مفعول مؤامراتهم كلها بحوله وقوته ، ويتيح لأهل الإيمان الظفر والغلبة عليهم ، ولكن متى يحدث هذا؟

إنما يحدث ذلك حين يُخْضع أهل الإيمان إرادتهم لإرادة الله على نحو تتلاشى إرادتهم تلاشياً كلياً ولا يبرز لها أي دور إلا دور التحقيق الدقيق لإرادة الحق جل وعلا، فيصير كل ما عند الله له، لأن كل ما عنده يكون قد أعطاه لله عز وجل قبيل خروجهم إلى بدر، توجه رؤساء مكة نحو بيت الله، ودعوا الله هناك آخذين بأستار الكعبة في ضراعةٍ

وابتهالٍ فقالوا : « اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين ».

ولقد عاد رؤساء مكة هؤلاء من بدر بالهزيمة الكاملة، بينما ظفر المسلمون بالانتصار الكامل، وهكذا قام الدليل، طبقاً لمعيار رؤساء مكة أنفسهم، على أنهم ليسوا «الجند الأعلى» ولا «الفئة الأكرم» عند الله، بل هم أهل الإسلام ولكنهم - مع ذلك - لم يؤمنوا بدين الإسلام ، والذين يفعلون هكذا، لهم عذاب أشد وأقسى ما يكون في الآخرة، مضافاً إلى ما يلقونه في هذه الدنيا ذاتها من عقوبةٍ وذلٍ وهوانٍ. إن قول الرؤساء : «اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين.. إلخ » كان - على ما يبدو - بمثابة دعاءٍ وتضرعٍ إلى الله، ولكنه في حقيقة الأمر ينمّ عن اعتدادهم وإعجابهم بأنفسهم؛ إذْ كانت تعمل وراء ذلك نفسيتهم القائلة بأننا سَدَنَة الكعبة وخدامها، وأننا أصحاب الانتماء إلى إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وما دمنا نتمتع بأمثال هاتيك الفضائل العظام، فلابد وأن يكون النصر حليفنا على أي حالٍ من الأحوال. بيد أن القيمة عند الله تعالى إنما هي للعمل الذاتي، وليس للانتماءات الخارجية، ومهما كان الانتماء الخارجي عظيماً، فإنه لن يغني عن المرء شيئاً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣ ﴾

يكون المرء تجاه الحق إذْ يُعرض عليه، بين موقفَيْن لا ثالث لهما : أحدهما أن يستمع له مع استخدام كل تلك القوى والصلاحيات التي زوّده الله بها كإنسانٍ ، فيتناوله بأدق وأعمق ما يكون من التأمل والتفكير، حتى يتمكن من الاستشعار بثقل صدقه وحقيّته، ثم يقدم بلسانه الاستجابة الصحيحة، تلك التي يتعين على فطرة الإنسان أن تقدمها بالنسبة لأمرْ حقٍ، والذي وقف مثل هذا الموقف، فكأنما قد استمع للأمر المعروض

عليه سماع إنسانٍ !

أما الموقف الثاني فهو: أن يستمع إليه كما لو أنه لا يملك حاسة السمع حتى يسمع بها، وتبقى مقدرته على الفهم عاجزةً عن إدراك صدقه، وبالتالي فهو لا يستطيع أن يقدم بلسانه تلك الاستجابة الصحيحة التي ينبغي عليه أن يقدمها بمقتضى الواقع ، والذي تبنى موقفاً كهذا، فكأنما هو سمع ما عُرض عليه سماع حيوانٍ.

وإن أمراً مهما كان حقاً وصادقاً، لا تنكشف حقّيته إلا على شخصٍ يسمعه عن استعدادٍ أو رغبةٍ قلبيةٍ ، وعلى نقيض من ذلك فإن الشخص الذي تنطوي جوانحه على مزاج الحسد، والكبر، والنفعية، والعبودية للظواهر، فإنه سوف لا يرى الصدق جديراً بالتأمل والتفكير ، ولا هو يصغي إليه بجديةٍ وإمعانٍ ، وهو بذلك سوف يظل فاشلاً في إدراك حقيته كذلك بكل تأكيدٍ.. إن الإيمان - على ما يبدو - قول، ولكنه من حيث حقيقته، قرار إنساني ، وليس الإيمان ترديداً لكلمات الشهادتين، بل هو إظهار لفظي لحالتنا المعنوية ولو أن المرء كان، في واقع أمره، على الحالة بعينها، التي هو يعلن عنها من خلال هذه الكلمات، فإن المؤمن الحقيقي عند الله تعالى، إن المؤمن إنسان غاية في الجدية، وليس من شأن الإنسان الجاد البتةَ أن يقول ما لا يعتقد، أوْ يتظاهر بخلاف حالته الباطنية.

والشخص الذي يكون إيمانه بمثابة الإعلان عن حقيقة النفس الداخلية، فإنه عندما يقر بالإيمان، يتخذ الله بالفعل معبوداً له، ويصبح خاضعاً مطيعاً له تعالى في كل شأنٍ من شئون حياته العملية، وسيكون إقرار الإيمان القولي عنده مرادفاً للدلالة على وجهة مسيرته، وليس مرادفاً لأي نوعٍ من التلفظ اللساني الفارغ ! وبالعكس من هذا تماماً حال شخصٍ قرع سمعَه أمر الحق، وأفحمه كذلك بما يحمل من الدلائل القاطعة والحجج الدامغة، ولكنه لم يكد ينفذ إلى أعماق روحه، ولم يمتزج بنبضات قلبه، اللهم إلا أنه لم يلبث أن بادر إلى الاعتراف الشفوي به، فتمتم قائلاً : سمعاً وطاعةً ! غير أن

حياته الواقعية ظلت كما هي، دون أن يطرأ عليها أي تغيير فعلي ، وهذه الصورة الثانية هي صورة النفاق، ولا قيمة عند الله لإيمانٍ منافقٍ زائفٍ كهذا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

يُحْيِيكُمْ: يورثكم حياة أبدية في نعيم سرمدى .

المراد بـ ((دعوة الحياة)) هنا هى ((دعوة الجهاد)) يعنى الكفاح من أجل إيصال الحق إلى الآخرين ، ويبدأ هذا الكفاح - أول ما يبدأ - في صورة الوعظ والتلقين بواسطة اللسان والقلم ، ثم ينتهى به عناد المدعو ورد فعله المعاكس إلى مراحل مختلفةٍ بما فيها الهجرة والقتال.

يبني المرء حياةً دينيةً، على المستوى الفردي، وفقاً لنظرته إلى الحياة وآرائه حول الدين وهو لا يلبث أن يطابق بين حياته تلك وبين ما يعيشه من ظروفٍ وملابساتٍ بحيث تبدأ تتراءى له وكأنها جزيرة الأمان والعافية ، إذْ يُخيّل إليه وكأنه لو نهض من أجل إصلاح الآخرين، فسيتناثر عُشّه الجميل وينهار مسكنه العتيد ، وسيتبدد شمل حياته الرتيبة المنتظمة، وسيعود نظام أوقاته وأمواله، الذي قد فرض على نفسه بالنظر إلى مقتضياته الذاتية، سيعود ذلك النظام القائم أثراً بعد عين !! وتقف مثل هذه المخاوف والمحاذير حجر عثرةٍ دون خروجه لكفاح الدعوة والإصلاح والتضحية بنفسه وماله في سبيله ، غير أن هذا ليس إلا منتهى الجهل والحماقة ، والحقيقة هي أن دار العافية التي يعتبرها المرء حياةً له، هي مقبرته، والتضحية التي يرى فيها موتاً له، هي نفسها مكمن سر حياته !

وعملية الدعوة والإصلاح، عملية لها أهميتها البالغة؛ شريطة أن تكون للآخرة

وليس للأغراض والمطالب الدنيوية ، فإن من شأنها أن تحوّل دين المرء الخامد الهامد إلى دينٍ فياضٍ بالحياة والحيوية ، وإنها لتربط المرء بالله على مستوى أسمى وأرفع ما يكون ، وهي تعرف المرء بتلك التجارب الدينية الثمينة التي لا تتأتى أبداً للمنطوي على نفسه أو المنكمش داخل قوقعته الفردية ، والذين يقابلون هذا النداء الإلهي البالغ الأهمية بالإهمال ولا يلقون إليه بالاً، فإنما هم يعرضون أنفسهم لخطر أن يقام بينهم وبين الحق حاجز نفسي؛ فيسيطر على عقولهم واستعدادهم الفطري صدأ لا يزول؛ حتى يعودوا لا يقدرون على أن ينصتوا لنداء الحق، ويتقدموا نحوه ليظفروا بربهم !!

إن حياة الإنسان حياة اجتماعية ، إذْ لا أحد يستطيع هنا أن يعيش وحده في جزيرةٍ منفردةٍ أو بقعةٍ معزولةٍ عن المجتمع ، ولو أن شخصاً قنع واطمئن بتدينه الذاتي، فلا يغرب عنه أبداً أنه على حافة البركان، فيوشك أن يتمخض الفساد الاجتماعي ذات يومٍ، إذا بلغ منتهاه، عن حريقٍ عامٍ شاملٍ، لا يلبث أن يبتلعه هو الآخر فيما يبتلع !

إن الكفاح الإصلاحي ليس سعياً وراء الإصلاح فحسب، بل هو إبراء ذمة المصلح كذلك ، إذًا، فلو أن المرء ظل فاشلاً في إبراء ذمته، فعَلامَ سيفصل الله أمره عن الآخرين بأن يعذبهم دونه ؟!

إن الشر يبدأ دوماً على نطاقٍ ضيقٍ محدودٍ، ثم إنه على توالي الأيام، لا يزال يتفاقم وتتسع دائرته حتى يستحيل شراً مستطيراً ، ولو أن أناساً هبّوا لمكافحة الشر، وهو لم يبرح طوره البدائي بعد، لتمكنوا من إزالته ومحو آثاره بتمام السهولة، وأما إذا كان الشر قد عم واستطار، فإن جذوره تترسخ وتتعمق لدرجة أن القضاء عليه يصير أمراً مستحيلاً.

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ

أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ: يستلبوكم ويصطموكم بسرعة.

فِتْنَةٌ: ابتلاء ومحنة أو سبب في الإثم والعقاب.

لقد كان المسلمون خلال إقامتهم بمكة في غاية البؤس والضعف، وكانوا دائمي الوجل والخوف من أن يتم استئصال شأفتهم واقتلاع جذورهم في أية لحظةٍ، وقد كان شأنهم إذ ذاك شأن الضعيف يعيش مقهوراً مغلوباً على أمره، يُضغط عليه ويؤخذ بخناقه من كل جانبٍ، ولا يُعطى له حتى حقوقه المشروعة، ثم ها هم أولاء قد انفتح لهم طريق المدينة آخر الأمر، حيث أتيحت لهم الفرصة لكي يذهبوا إلى المدينة، ويؤسسوا فيها مركزاً لهم، ويعيشوا هناك في بيئةٍ حرةٍ عيشة الأحرار الكرام. وإنما يتاح اليسر بعد العسر على هذه الوتيرة، حتى تستيقظ في نفس المرء عاطفة الشكر، فعندما تنتهي أحوال المرء إلى حدٍ يبدأ معه يشعر بأنه عاجز لا قوة له ولا حيلة، فتتجلى نصرة الله فجأةً وتتغير الأحوال، وما يحدث ذلك إلا لكي يستيقن المرء بأن كل ما حدث وما يحدث إنما هو من عند الله تعالى، ويملؤه هذا الإحساس بعواطف الامتنان والشكر لله على إحسانه ونعمه.

إن المرء بإيمانه بالله ورسوله، يقطع على نفسه عهداً بأنه سيتبع سبيل الله ورسوله، ولكن حين تحول مقتضيات ماله وعياله بينه وبين اختياره للمنهج الإيماني، فإنه سرعان ما يتخلى عن مقتضيات الإيمان ويأخذ بمقتضيات المال والعيال، إنها نقض صريح أوْ بالأحرى خيانة سافرة بالعهد الإيماني، وتزداد هذه الخيانة قبحاً وشناعةً إذا نحن لاحظنا أن الشيء الذي من أجله يخون المرء ربه وينقض عهده هو ذاته عطية من عطايا الله !!

فما أموال المرء وأولاده ؟ إنها لا تعدو أن تكون هبة الله المنعم الوهاب، وبمعنى آخر: إنها أمانة الله لدى العبد، وليس ثمة من وجهٍ أفضل لصرف هذه الأمانة من أن

يتم تفويضها إلى المعطي إذا ما طلبها عن طيب خاطرٍ. ولكن حين ينادي الله عباده بأن هبوا لخدمة ديني، وكرسوا جهودكم وطاقاتكم في سبيلي، فإذا بالمرء يجعل من تلك الأمانة ذاتها عذراً له، تلك التي كان عليه أن يبذلها في سبيل دين الله وفاءً بعهد الإيمان الذي أعطاه لله ، فهو يسجّل اسمه ضمن الفاشلين، في حين أنه كان من النجاح على قاب قوسين أوْ أدنى !

إن أي فعلٍ من الأفعال لا يُعدّ عند الله جريمةً أو معصيةً إلا إذا تم العمل به مع العلم بأنه خطأ ، فلو أن شخصاً تبين له وجه الخطأ في عملٍ من أعماله، ولكنه - بالرغم من ذلك - لا يزال يباشره، فإنه يأخذ على عاتقه تبعةً جسيمةً جداً، لأن إعادة الخطأ، بعد العلم بأنه خطأ، هو العناد، وليس العناد أبداً مما يستحق عفو الله وغفرانه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝ ﴾

فُرْقَاناً: هداية ونورا أو نجاة ، أو مخرجا .

لِيُثْبِتُوكَ: ليحبسوك أو ليقيدوك بالوثاق .

وَيَمْكُرُ الله: يعاملهم معاملة الماكرين .

تعني لفظة الفرقان كل ما فرق بين الشيء ونقيضه ، وقد أريد بـ «الفرقان» هنا قدرة التمييز بين الحق والباطل ، وإن من اتقى الله، بفعل أوامره، وترك زواجره، وُفِّق لمعرفة الحق من الباطل [1]. إن أكبر عاملٍ يوقظ المدارك أو القدرات الإنسانية الكامنة هو الخوف ، فإذا تولدت نفسية الخوف في داخل المرء بالنسبة لأمرٍ من الأمور جعلته بإزاءه واقعياً إلى أقصى حدود الواقعية، وإنها - أي نفسية الخوف- لتزيح أستار ذهنه كلها على

(١) (يراجع مختصر تفسير ابن كثيرص ٩٩) .

نحوٍ يتمكن معه من أن يكون حول الأمر رأياً أسد وأصوب ما يكون، مترفعاً عن كل أنواع الغفلة أو سوء فهمٍ يحتمل وقوعه فيها بصدده ، وهكذا يكون شأن العبد تماماً، إذا ما ارتبط بالله رب العالمين برباط التقوى والخوف.

ويكاد هذا الفرقان أن يكون مرادفاً لما يطلق عليه المعرفة أو البصيرة، فالبصيرة هي نور داخلي يُقذف في قلب أحد الناس، يؤهله لرؤية الأشياء كما هي، من غير انخداعٍ بالقشور الظاهرية، وإنه كلما يدمج المرء وجوده في أمر من الأمور لدرجة أنه يصبح مهتماً به، ساهراً عليه، دائم القلق والحذر بشأنه، تتولد في داخله حساسية من نوعٍ خاصٍ، تعرفه بكافة الجوانب الإيجابية والسلبية المتصلة بذلك الأمر.

وتجربة الفرقان - البصيرة - هذه عامة يمر بها كل أحدٍ في مجال اختصاصه؛ سواء كان رجلاً دينياً أو تاجراً، أو طبيباً أو مهندساً ، فكل واحدٍ من هؤلاء حين يبلغ ارتباطه بعمله من الشدة والعمق حد التقوى، أي الحذر والقلق عليه، حتى يصير هو شغله الشاغل، فإنه يصبح عارفاً بمختلف أبعاده ونواحيه معرفةً يتوصل في ضوئها إلى حقيقته رأساً وبدون أن يتورط في المغالطات الجانبية. وتولّد هذه البصيرة الإلهية «الفرقان» في قلب عبد ما، أكبر ضمان لأنه سيحاول جهده أن يجتنب السيئات ومنكرات الأمور ، ويصحح علاقته بالله تعالى ، ويعود بالتالي مستحقاً لفضل الله وكرمه ، وإن تَوَلُّدَ هذا الفرقان (المقدرة النفسية على تمييز الحق من الباطل) لدليل على أن المرء قد ربط وجوده بالحق ، ويصير أمثال هؤلاء إلى كنف الله وحمايته المباشرة . والآن فإن التآمر ضدهم يتحول إلى التآمر ضد الحق . والمتآمر ضد الله يبوء دوماً بالفشل الذريع، مهما كانت مؤامرته التي دبرها دقيقةً وعظيمةً !

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ

وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ: أكاذيبهم المسطورة في كتبهم .

مُكَاءً وَتَصْدِيَةً: صفيرا وتصفيقا.

«لو نشاء لقلنا مثل هذا وإن كنا على غير الحق، إذاً فلِمَ لا يُمطر علينا حجارة من السماء» كل هذه أحاديث مصدرها الزهو والكبرياء والغرور ، فحين يجد المرء نفسه في وضعٍ منيعٍ، وإذْ يرى أن إنكاره وجحوده للحق، أو إهماله إياه، لم يؤدّ إلى خسارةٍ ما، تتولّد في داخله نفسية الاعتماد الكاذب، بحيث إنه يحسب أن كل ما يفعله هو الصواب نفسه، وشعوره هذا ربما يبعثه على النطق بكلماتٍ لا يتفوه بها أحد في الأحوال المعتادة، وإنما تتولد هذه الجراءة في نفوس أمثال هؤلاء بسبب قانون الإمهال الإلهي ، فلا شك أن الله - عز وجل - يعاقب المجرمين، ولن يفلت من بطشه أحد أبداً ، ولكن سنة الله هي أنه تعالى إنما يبطش بالمرء دوماً، إذا كان تم إيضاح الحق والباطل له على وجهٍ أكمل ما يكون ، فلا يتم إهلاك أحدٍ قبل اكتمال هذه العملية ، كما أن حلول العذاب لا يزال موقوفاً كذلك ما دام للعمل الدعوي مكان في المجتمع، وتأثير في نفوس رجاله، فيقومون بإصلاح أنفسهم متأثرين به فرادى ومثنى وثلاث ، وحتى يكتمل هذا العمل إلى حدٍ تخرج معه سائر الأرواح السعيدة من محيط المجتمع الموبوء الهالك.

إن فساد الأمم لا يؤدي أبداً إلى زوال أو انْمحاء ما لديها من مظاهر الدين وصوره، وإنما الظاهرة التي يتكرر حدوثها دوماً في زمن الفساد والانحطاط هي أن يذهب ويتلاشى الدين القائم على الخشوع والخشية الإلهية ، ويحل محله الدين القائم على

التفاخر والأبهة ، فلا يعود الآن لدى القوم رصيد من العمل، بل تكون شخصيات الماضي، والمناصب القائمة بأسمائها، نصب أعْينهم، حيث يخيل إليهم أنهم بتعلقهم بتلك الشخصيات والمناصب قد نالوا العظمة التي تتمتع بها هذه الشخصيات والمناصب بأسبابٍ تاريخيةٍ ، فيكون الناس فارغين مفلسين داخلياً، ولكن من خلال القيام بأعمال استعراضيةٍ بأسماء مجيدةٍ وشعاراتٍ طنانةٍ، يزعمون أنهم يمارسون بطولةً دينيةً عظيمةً جداً.

وقد كان أهل مكة مصابين بمثل هذه النفسية ذاتها ، حيث كانوا يتباهون بأنهم ورثة بيت الله ، وأنهم أمة نبيين جليليْن كإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - إلى جانب تمتعهم بشرف سدانة الكعبة وخدمتها ، مما جعلهم يزعمون أنهم إذا كانوا يحملون مثل هذه الألقاب والامتيازات الدينية الفخمة ، ويمارسون مثل هذه البطولات الدينية الجبارة، فكيف يمكن إذًا أن يقذف الله بهم في نار جهنم !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

حَسْرَةً: ندما وتأسفا.

فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً: فيجمعه ملقى بعضه على بعض.

البشر صنفان: طيب وخبيث ، فبعض الأرواح تتغذى بأشياء يحبها الله تعالى ، وبعضها تتلذذ بما تميل إليه النفس أوْ يرغّب فيه الشيطان. ويظل هذان الصنفان كلاهما مختلطاً بعضهما ببعض في الأحوال العادية، فلا يرى ثمة من فارقٍ بين الاثنين في ظاهر الأمر ، ومن ثم يبتلي الله الناسَ بتفجير صراع الحق والباطل بينهم ، حتى يتميز

الصنفان أحدهما عن الآخر تميزاً تُعلم معه حقيقة الكل بوضوح ، فمن خلال هذا الصراع يتضح من ذا الذي يبادر إلى الاعتراف بالحق بعد أن ظهر أمامه ومن ذا يقابله بالجحود والإنكار ، ومن يقف عند حدود العدل والإنصاف في أثناء التعامل مع الآخرين ، ومن يتجاوز حدود العدل إلى الجور والعدوان ، ومن يعيش في أرض الله متواضعاً ، ومن يعيش طاغياً متمرداً ، ومن ينفق ماله في سبيل الحق ، ومن ينفقه في سبيل التعصب والزهو والتفاخر.

والذين يبذلون جهودهم في سبل أخرى غير الحق ، يزين لهم الشيطان عملهم هذا على نحوٍ يخيّل إليهم وكأنهم يمارسون أعمالاً بطوليةً عظيمةً ، وأنهم يتقدمون نحو مستقبلٍ رائعٍ غير أن عُمر سوء الفهم هذا قصيرٌ جداً ، فسرعان ما يأتي على المرء حين من الدهر يعلم فيه أن كل ما قد فعله لم يكن سوى مضيعة لماله وطاقته ، وأن المستقبل الذي كان يتقدم إليه لم يكن ينطوي على شيء سوى مرارة اليأس والحسرة وإن كان يحسب سعيه وراء ذلك ، لسيطرة الأحلام والأماني الزائفة على ذهنه ، بمثابة رحلة إلى مستقبل زاهرٍ وضّاء !!

إلا أن أمثال هؤلاء لابد وأن يعودوا بالفشل في مواجهة الحق الخالص ، فقد يكون فشلهم في ميدان الدليل تارةً ، وقد يكون ـ مع ذلك ـ في ميدان العمل تارةً أخرى.. إن كل الصراعات الدائرة في رحاب العالم الراهن إنما أُجريت لكي يتم فرْز الأرواح الطيبة من الأرواح الخبيثة ، وإذا تمت عملية الفرز هذه ، فسيدخل الله الأرواح الطيبة إلى الجنة ، وسيقذف بركام الأرواح الخبيثة جمعاء في الجحيم !

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾

سُنَّتُ الأَوَّلِينَ: عادة الله في المكذبين لرسله.

فِتْنَةٌ: شرك أو بلاء.

لقد أكد الإسلام على المبدأ القائل بأن كل شخص إنما يلقى جزاءه بحسب عمله سواءً بسواءٍ، بيد أن الله - جل شأنه - أقر برحمته حالةً استثنائيةً خاصةً لا يسري عليها هذا المبدأ العام الشامل، وهي إذْ يتقدم المرء بـ «التوبة» فإنه لن يعاقب بعدئذٍ على أعماله السابقة.

إن هناك شخصاً كان يعيش بعيداً عن الله، مقطوع الصلة به، ثم إذا به يهتدي أخيراً إلى نور الهداية، فيختار حياةً صالحةً تقيةً كمؤمن صادق الإيمان، فإنه ليس بمآخذ على سالف ذنوبه، وسُيعفى عنه كل السيئات والخطايا التي كان قد ارتكبها من ذي قبل.

والمبدأ نفسه ينسحب على الشئون الاجتماعية والسياسية كذلك، فقد يحتدم صراع بين الحق والباطل في موضعٍ ما، ثم يقع هناك صدام عملي بين الجانبين، وفي خلال هذا الصدام يظلم حملة لواء الباطل الناهضين من أجل الحق، ولكن ما هي إلا أن تضع الحرب أوزارها في نهاية المطاف، حتى تتكشف عن فوز أتباع الحق بالغلبة والانتصار على حملة لواء الباطل.

وعند معالجة هذه القضية أيضاً ينطلق الإسلام من المبدأ الذي تقدم ذكره آنفاً، يعني أن شخصاً ما لن يُعاقب بعد الفتح على سالف عدوانه وظلمه، اللهم إلا إذا صنع أحد الناس عقب الفتح صنيعاً عُدّ جنايةً في التشريع الإسلامي، فإنه سينال حتماً العقوبة التي أقرتها الشريعة لمثل هذا الجاني، بعد اتخاذ الإجراءات اللازمة بهذا الشأن.

الفتنة معناها الاضطهاد (persecution). إن الحكومة والسيادة كانتا تقومان على أساس من الشرك في الزمان القديم، إن أصحاب السلطة اليوم يحكمون بوصفهم ممثلين للشعب، بينما كان الناس يحكمون في القرون الماضية باعتبارهم خلفاء لله أو شركاء الله، ونتيجةً لذلك كان الشرك قد اكتسب حيثيةً سلطويةً في المجتمع القديم،

وبالتالي كان المشركون لا يزالون يضطهدون أتباع التوحيد.. وقد أمر الله آخر رسله وأصحابه - عليه الصلاة والسلام - بأن يبتروا العلاقة القائمة بين الشرك والسلطة بتراً، حتى يصبح أهل الشرك محرومين من صلاحية اضطهاد الموحدين.. فالثورة العالمية التي فجرها رسول الإسلام ﷺ قضت على صلة الشرك بالنظام السياسي إلى الأبد.. فلا يعدوُ الشرك الآن أن يكون عقيدةٍ دينيةٍ أينما وُجد من أنحاء العالم أجمع، وليس النظرية السياسية التى تقوم الحكومات على أساسٍ منها.

وأمَّا ما يتعلق بجزيرة العرب فقد كان هذا الغرض هناك مطلوباً بصفةٍ مزدوجةٍ. حيث كان المطلوب هنا القضاء على الشرك والمشركين معاً لكيما يتم تحويل منطقة الحرمين الشريفين إلى مركزٍ أبديٍ للتوحيد الخالص، ومن ثم أمر رسول الله ﷺ بأن: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب».. وقد بدأ هذا العمل في عهد رسول الله ﷺ ووصل إلى نهايته في عهد الخليفة الثاني عمر الفاروق ﷺ!

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾

لِلَّهِ خُمُسَهُ: والأربعة أخماس للغانمين.

يَوْمَ الْفُرْقَانِ: بين الحق والباطل (يوم بدر).

الغنيمة في لغة العرب تُطلق على المال الذى أُخذ من العدو بطريق القتال معه في ميدان الحرب، وقد كانت العادة المتبعة في الأزمان الغابرة أن يُعتبر كل شيء انتُزع من العدو خلال الحرب ملكاً للذى وقع فى يده، أما الإسلام فقد قرر بهذا الشأن مبدأ يفرض على الغانم أن يدفع ما حصل عليه برمته إلى الأمير، ولا يستأثر أحد لنفسه حتى بخيط الإبرة.

وبعد تجميع أموال الغنيمة كلها على هذا النحو ، يُجعل خُمسها لله ، يأخذه الرسول نيابةً عنه تعالى ، ويصرفه في مصارف خمسة : نفسه هو أولاً ، ثم أقربائه الذين وقفوا إلى جانبه وشدوا من أزره كلما اشتدت عليه وطأة الظروف عبر مسيرته الدينية على أساس القرابة، ثم اليتامى ، وذوي الحاجات ، والمسافرين. ثم تُوزّع الأخماس الأربعة المتبقية بين سائر الجنود بحيث يُعطى الفارس سهمين والراجل سهماً واحداً.

إن الإسلام يريد تربية المرء على أن يعتبر كل شيء يظفر به شيئاً متاحاً من عند الله تعالى. إن إحداث واقعةٍ ما في هذا العالم يستلزم مواتاة أسباب لا تحصى في آن واحدٍ ، ما ليس بمستطاع أي إنسانٍ.. ولقد كان الانتصار الحاسم الذي كسبته فئة ضعيفة في مواجهة فئةٍ غاية في القوة والبأس ، في معركة بدر ، دليلاً غير عادي على أن كل ما حدث إنما كان من قبل الله تعالى، وفي حالة كهذه لم يكن اعتبار الشيء الحاصل في أعقاب الفتح والغلبة ، شيئاً متاحاً من عند الله ، سوى التسليم بالحقيقة ذاتها التي ظهرت للعيان كنتيجةٍ طبيعيةٍ للوقائع والأحداث.

وفي جعل حصصٍ معينة للإخوة المستحقين الآخرين في الغنائم درس مؤداه أنه ليس مجرد الكدح أو الوراثة هي التي تمثل أساس الاستحقاق لأنواع المال ، بل هناك أسس أخرى أيضاً لها اعتبارها ، وهي تخرج عن نطاق أشياء كالكدح والوراثة، وكأن الاعتراف بوجوه الاستحقاق الأخرى هذه هو اعتراف عملي من المرء بأنه ينظر إلى الأشياء على أنها ملك لله، وليست ملكاً لذاته هو.

والدرس الثالث البالغ الأهمية الذي ينطوي عليه تشريع قسمة الغنائم هذا ، هو أن أساس الامتلاك هو المبدأ وليس محض الاستيلاء ، فلا يصبح أحد الناس مالكاً لشيء ما ، لكونه أنه وقع في قبضته على سبيل المصادفة ، إذْ ينبغي على المرء ، رغم حيازته على شيء ما، أن يدفعه إلى المسؤولين ، ويرضى منه بالقدر الذي يستحقه من الناحية المبدئية والقانونية!

﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا: بحافة الوادي وضفته الأقرب للمدينة.

وَالرَّكْبُ: عير قريش فيها أموالهم.

لَفَشِلْتُمْ: لجبنتم عن القتال وهبتموه.

لقد شاءت إرادة الله - تبارك وتعالى - أن ينكشف للناس أمر الحق والباطل على وجهٍ ما يكون، وتتم هذه العملية، بادئ ذي بدءٍ، عن طريق الدعوة، وفي لغةٍ من الدلائل والبراهين، فالداعي يلجأ إلى أقوى الأدلة وأوضحها، وأقربها إلى أفهام الناس، ليثبت حقية الحق وبطلان الباطل، ثم تنتهي عملية إحقاق الحق وإبطال الباطل هذه، في نهاية المطاف، بواقعاتٍ غير العادية، سواء أكانت تلك الواقعة غير المادية متمثلةً في أي معجزةٍ سماويةٍ، أو غلبةٍ أرضيةٍ، وقد شهدت معركة بدرٍ واقعةً من هذا النوع الأخير.

خرجت قريش من مكة لنجدة قافلتهم التجارية الهابطة من مشارف الشام، بينما خرج المسلمون بدورهم من المدينة يريدون الهجوم على القافلة، وقد اتجهت القافلة نحو الساحل، تاركةً وراءها طريق القوافل المعروف، فنجت، وإذا بهذين الفريقين يفضي بهما المسير إلى بدرٍ، حيث يلتقيان وجهاً لوجهٍ !!. وما حدث ذلك إلا بتدبير من الله العلي القدير، وقد تم تمكين أهل الإيمان من الانتصار والغلبة بدفع كلا الفريقين إلى

الاصطدام، وهكذا تبين للناس صدق رسول الله ﷺ ورسالته على أتم ما يكون، وقد اتضح لمن كانوا يحملون في صدورهم جذوة الطلب الصادق، أن هذا هو الحق.. وأما الذين كانوا مصابين بأي نوعٍ من التعقيدات والالتواءات النفسية، فقد أثبتوا ببقائهم على مسلكهم وإصرارهم على عنادهم، بالرغم من وضوح الحق بجلاءٍ، أنهم لا يستحقون شيئاً سوى أن يتم إهلاكهم.

وفي معركة بدرٍ كان عدد جيش الكفار، تحت قيادة قريش، أكبر بكثير من الجيش الإسلامي، ولو أن المسلمين نظروا إلى تعدادهم الحقيقي، بالمقارنة إلى أنفسهم، لقال قائل منهم: قاتلوا، وقال آخر: لا تقاتلوا، وهكذا لَنَشب بينهم الاختلاف، وبقي الغرض الأصلي كما هو بدون تحقيق.. وقد تناول الله عدد الفريقين بالتقليل في أعين أحدهما تارةً، وطوراً بالتكثير في أعين الآخر حسب مقتضى الأحوال، الأمر الذي مكن المسلمين من أن يقاتلوا جميعاً متحمسين للقتال مستميتين فيه.. وكذلك الله إذا أراد أمراً هيأ من عنده كل الأسباب اللازمة لتحقيقه على النحو المطلوب.. إن الأحوال التي تطرأ، والظروف التي تستجد خلال العمل، إنما تكون من عند الله - سبحانه وتعالى - والغاية منها تتلخص في معرفة نوعية رد الفعل الذي يمكن أن يقدمه كل أحدٍ منا في ظل الظروف المحيطة به!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

رِيحُكُمْ: تتلاشى قوتكم أو دولتكم.

بَطَراً: طغيانا أو فخرا أو أشرا.

النجاح لا يتأتى إلا بنصر الله ، ونصر الله يأتى دوماً ، مقنعاً بحجاب الأسباب ، وليس فى حال انعدام الأسباب، ولو أن المسلمين أحضروا ما فى مقدورهم من الأسباب والوسائل ، لأتيح لهم النجاح بعد أن يتم سد الخلل الباقى من عند الله جل شأنه ، وأما لو أنهم كانوا صفر الأيدى من الأسباب ، ولم يُعنوا حتى بإعداد ما يمكنهم إعداده منها ، فليس من شأن الله أبداً أن يبعث بنصره ، حيث لا تتوفر أسبابه ودواعيه. وما هي تلك الأسباب التي تستوجب نصر الله؟! إنها تتمثل في : ألا يبادر المسلمون إلى الهجوم ، وإنما ينبغي لهم أن يركزوا اهتمامهم كله على تقوية أنفسهم وترسيخ جذورهم، إلى أن يهاجمهم العدو بنفسه، ويجرهم إلى القتال ، ثم إذا وقع الصدام فعلاً ، فما عليهم إلا أن يظلوا صادمين في وجهه صمود الجبال ، وأن يكونوا فى كل حينٍ ذاكرين لله ، مستحضرين لهدفهم الحقيقي ؛ حتى لا يجد الفتور أو الوهن سبيلاً إلى قلوبهم ، وأن ينظموا شئونهم كلها تنظيماً دقيقاً تحت أمر الرئيس ، فيكون كل عملٍ من أعمالهم مظاهرة حيةً للتنسيق والوحدة في صفوفهم ، ويهملوا كل نزاعاتهم الداخلية ، دون أن يزيدوا من حدتها فتنشق عصاهم وتنقسم كلمتهم ، وتحل الفوضى محل النظام ، وليملأوا عدوهم رعباً ورهبةً بوحدتهم المتماسكة ، وليتمسكوا بالصبر ؛ بدلاً من الحماس والتهوّر ، فلا يتخذوا خطوات غير ناضجةٍ شوقاً إلى النجاح العاجل، ولتتجه أنظارهم دوْماً إلى الهدف النهائي ، وليس إلى المصالح الآنية والمنافع الوقتية.

وإنما الأسباب عبارة عن الأشياء ، ليس غير ، ومن خلال هذه الأسباب ذاتها يأتي النصر من عند الله تعالى.

إن العالم الراهن هو عالم الامتحان ، وإنما يقوم الله هنا بإدارة شئونه وتدبير أموره كلها وهو في ((الغيب))، دون أن يتجلى بذاته للعيان ، ومن ثم فإذا نصر المسلمين ، جاء نصره مقنعاً بحجاب الأسباب ، ولو أن المسلمين لم يُوجدوا مناخ الأسباب ، فأظهروا الضعف والجبن ، وشرعوا في الإقدام قبل إعداد العدة الأولية اللازمة ، أصيبوا بالفرقة والشقاق والفوضى داخل صفوفهم ، فليس لهم أن يأملوا أبداً في أن الله سيمزق لهم

حجاب الغيب ، ويخرق قانونه الثابت ، فينصرهم ، رغم ضعفهم وقصورهم في الأخذ بالأسباب المتاحة. كلا.. كلا.

ولو أن المسلمين وجدوا أنفسهم في وضعٍ أحسن مما عليه عدوهم ، فليس من الجدير بهم أن تُبطرهم قوتهم ، وتستبد بهم عواطف الفخر والمباهاة شأن الكفار ويذهب بهم الكبرياء والغرور إلى حدٍ يتصدون معه لمعارضة شخصٍ لكونه أنه يدعو إلى حقٍ لا يتفق مع أهواء أنفسهم !

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

وَإِنِّي جَارٌ: مجير ومعين وناصر لكم.

نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ: رجع القهقري وولى مدبرا.

كان معارضو الإسلام في مكة يرون أنفسهم على الحق ، وأصحاب الرسول ﷺ على الباطل ، وربما يتبين لك مبلغ يقينهم من هذا الأمر من أنهم ، قبل أن يتوجهوا نحو بدرٍ، وقفوا بين يدي الكعبة ، فابتهلوا إلى الله قائلين : اللهم أي الفريقين منا كان على الحق فأظفره ، وأينا كان على الباطل فأهلكه ، على أن يقينهم هذا لم يكن إلا يقيناً كاذباً ، يتولد دوْماً بسبب تزيين الشيطان.

فقد علّم الشيطان أهل مكة : إنكم مؤمنون بإبراهيم وإسماعيل ؛ وهما من الأنبياء المسلم بهم تاريخياً ، بينما يؤمن المسلمون برجل مازالت نبوته بعدُ موضع الجدل والنقاش ، وأنتم ورثة الكعبة ، بينما المسلمون مطرودون من جوار الكعبة ، وأنتم

تقاتلون من أجل الحفاظ على تقاليد السلف ، بينما نهض المسلمون من أجل القضاء على تلك التقاليد العريقة.. ومن خلال إلقاء مثل هذه المزاعم في قلوب أهل مكة ، فقد أصابهم الشيطان باليقين الكاذب ، مما جعلهم يحسبون أن كل ما هم فاعلوه هو الصواب عينه ، وأن نصر الله لابد أن يكون حليفهم على أية حالٍ.

وقد كان المعارضون في مكة يعدون يقينهم الكاذب ، القائم على مثل هذه المزاعم ، يقيناً صادقاً ، حين كانوا يرون أصحاب الرسول ، وقد انضموا إلى جبهة الإسلام ، يحدوهم يقين أصدق منهم ، ومتدفقين حماساً وعاطفةً نضاليةً أشد وأقوى منهم ، فإنهم كانوا يصفون يقينهم الصادق بأنه لا يعدو أن يكون مجرد جنونٍ ديني ، وأنهم قد فقدوا رشدهم تأثراً بأحاديث هذا الرجل - أي الرسول - الجميلة ، فاندفعوا وراءه اندفاع المسحورين ، وأنه لا حقيقة ليقينهم وتفانيهم في سبيل دينهم.

ولكن عندما التقى الجمعان ، وهبط نصر الله للمسلمين ، ولى الشيطان هارباً متخلياً عن معارضي الإسلام ، وقد ازداد المسلمون ثقةً ورباطة جأشٍ بنصر الله ، واستحال يقين المعارضين الكاذب إلى الفتور وسقوط الهمة ؛ لأنهم كانوا قد وضعوا ثقتهم في الشيطان ، والشيطان الآن قد خذلهم وفرّ هارباً.. والذين يعتمدون على الله ، فإن الله يمدهم بنصره ولا ريب ، على أن نصر الله إنما يأتي دوْماً إذا كان أهل الإيمان قد أقاموا الدليل على يقينهم بالله، لدرجة أن يصرخ فاقدو اليقين قائلين : إن هؤلاء قد باتوا مجانين!!

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ

ءَالِ فِرْعَوْنَ ۚ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

كَدَأْبِ: كعادة.

دوام النعمة تعتمد على حالة الاستحقاق للنعمة، فالنعم التي يحظى بها أحد، على المستوى القومي، تكون دوْماً على قدر الاستحقاق المتوفر لدى قومه من حيث الحالة النفسية، وبما أن هذه «النفس» توجد في داخل الفرد؛ لذا فبالإمكان القول، بأن الإنعامات الاجتماعية مدارها على الحالات الفردية، وبناءً على هذا، فنصيب الأمم من الإنعامات الاجتماعية يتناسب تماماً مع الدرجة التي تحتلها على مستوى الأفراد؛ لا أكثر ولا أقل.

وهذا يعني أن طائفةً ما إذا كانت تريد أن تظفر بنعم الله الاجتماعية، فينبغي لها أن تكرس طاقاتها في سبيل الإصلاح النفسي لأفرادها، وهكذا لو أن أمةً ما وجدت نفسها، وقد انتزعت منها النعم الاجتماعية كلها، فيجب عليها أن تسعى وراء أفرادها بدلاً من السعي وراء هذه النعم، لأنها لم تُسلب هذه النعم إلا بفساد الأفراد، ولن تظفر بها ثانيةً إلا بصلاح الأفراد.

وإن أمةً ما حين تختار سلوك الطغيان بدلاً من التواضع، وتبدأ تمارس الظلم بدلاً من العدل، فإن الله يقيض من يقوم بإعلان الحق أمامها؛ حتى تنتبه وتستيقظ من غفلتها، وهذا الإعلان لغاية وضوحه وجلائه، يمثل آيةً من آيات الله، وبالتالي فيكون الإيمان به إيماناً بالله، وإنكاره إنكاراً لله.

ولئن ظل الناس يأبوْن إلا الجحود والإنكار لدعوة الله، حتى بالرغم من ظهورها عليهم عاريةً كآية إلهية بالغة الوضوح والبيان، فإنهم يعودون بعدئذٍ مستحقين للعقوبة، ومع أن هذه العقوبة تبدأ من هذه الدنيا ذاتها، إلا أن عقوبة الدنيا أقل بكثير بالقياس إلى تلك العقوبة التي سيواجهها المرء بعد الموت، فمن ضرب الملائكة، إلى

الخزي والهوان أمام جميع الخلائق من أولهم إلى آخرهم ، إلى الاحتراق بنار جهنم، كل هذه مراحل فظيعة ومروعة لدرجة أننا لا يمكننا حتى أن نتصورها في أحوالنا الراهنة !!

وحين يختار الإنسان سلوك الظلم والطغيان ، فتظهر له النذر والتنبيهات الإلهية ، وإن هو لم يتعلم منها أي درسٍ ، واستمر في البغي والعناد ، فإنه لا يلبث أن يتعرض في النهاية لعذاب الله الذي لا يُردّ!

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

تَثْقَفَنَّهُمْ: تصادفتم وتظفرن بهم .

فَشَرِّدْ بِهِم: ففرق وبدد وخوف بهم .

قَوْمٍ خِيَانَةً: قد عاهدوك.

فَانبِذْ إِلَيْهِمْ: فاطرح اليهم عهدهم وحاربهم .

عَلَى سَوَاءٍ: على استواء في العلم بنبذه .

إن اليهود المقيمين بالمدينة كانوا قد صاروا مجرمين عند الله بإنكارهم لرسالة رسول الله ﷺ ثم إنهم زادوا جريمةً على جريمتهم هذه بغدرهم ونقضهم للعهود والمواثيق. ففي أعقاب الهجرة النبوية عُقدت بينهم وبين رسول الله ﷺ معاهدة كتابية كانت تنص على أن الفريقين سيقفان على الحياد التام بعضهما من البعض الآخر في شئونها الخاصة ، بيدْ أن اليهود لم يلبثوا أن بدؤوا يمكرون ويدبرون المكائد ضده - عليه الصلاة والسلام

- بالتواطؤ سراً مع أعدائه - المشركين -، وقد كان في ذلك زيادة الغدر على الكفر، وكان في ذلك جمع اللؤم والدناءة إلى جانب الإنكار والجحود، وإنما ينتظر أمثال هؤلاء الكفرة الغدرة المكرة عذاب فظيع في الآخرة، وأما فيما يتعلق بهذه الدنيا، فقد أمر الإسلام باتخاذ إجراءات قاسيةٍ غليظةٍ ضدهم، إنهاءً لشرورهم، وتثبيطاً لعزائمهم ونواياهم الخبيثة.

ولو أن المسلمين كان بينهم وبين قومٍ معاهدة ما، ثم أرادوا إلغاء هذه المعاهدة؛ خوفاً من بوادر الخيانة والغدر من الطرف الآخر، فيجب عليهم أن يخبروهم بذلك، حتى يصير الطرفان على علمٍ مسبقٍ بأنه لم تعدْ من الآن حالة المعاهدة قائمةً بين الجانبين !!

كان الأمير معاوية ﷺ قد أبرم ذات مرةٍ ميثاقاً مؤقتاً بينه وبين الحاكم الروماني، ولما حان أجل الميثاق، بدأ الأمير معاوية يحشد جيوشه في صمتٍ على حدود الروم، ناوياً أن يشن هجوماً مباغتاً على المنطقة الرومية مع بزوغ فجر اليوم التالي لانقضاء أجل الميثاق !! وبينا هو كذلك إذْ جاء صحابي يسمى ((عمرو بن عبسة))، راكباً على فرسٍ، وهو يقول بأعلى صوته : الله أكبر.. الله أكبر.وفاء لا غدر، إن رسول الله ﷺ قال : ((ومن كان بينه وبين قومٍ عهد، فلا يحلن عقدة ولا يشدها، حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواءٍ))[1].

وثمة صورة أخرى، وهي إذا لم يكن الأمر محصوراً في الخوف من الغدر، بل تجاوزه إلى نقضٍ عملي صريحٍ للمعاهدة من الطرف الآخر، ففي مثل هذا الوضع من الجائز أن نقوم بالعملية المعاكسة ضد الغادر، دون إخطاره بذلك مسبقاً، وفتح مكة مثال على هذا الموقف، فلما خالفت قريش معاهدة الحديبية، بتعاونها مع بني بكرٍ في عدوانهم على بني خزاعة - حلفاء النبي ﷺ قام - عليه الصلاة والسلام - بخطوةٍ صامتةٍ ضد

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، ص١١٤.

قريش بدون إخبارها بذلك سلفاً !

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

سَبَقُوا: خلصوا وأفلتوا من العذاب.

قُوَّةٍ: كل ما يتقوى به فى الحرب .

رِّبَاطِ: حبسها للجهاد فى سبيل الله.

جَنَحُوا لِلسَّلْمِ: مالوا للمسالمة والمصالحة .

حَسْبَكَ الله: كافيك فى دفع خيانتهم .

إن الإسلام يعتمد على عرض القوة أكثر منه على استخدام القوة ، ومن ثم أُمر المسلمون بإعداد «القوة المرهبة» : وهي تعني جملة الأشياء التي من شأنها أن تخيف العدو وتدخل في نفسه الرعب والذعر إلى حدٍ يفقد معه روح الإقدام والمواجهة ، وإن الإسلام ليُعني بتقوية كيانه وتسليحه تبعاً لمقياس العصر ، ولكن ليس من أجل القتال بالضرورة ، بل لكيما تبقى هيبته قائمةً في نفوس أعدائه، فلا تحدثهم أنفسهم يوماً ما بالاعتداء عليه واستباحة حماه، والذين سيبذلون أموالهم من أجل تقوية الإسلام

وتسليحه على مستوى العصر ، من كلتا الناحيتين الفكرية والعملية ، سيُجزون على ذلك عند ربهم جزاءً يضاعف لهم مراتٍ كثيرةً.

وسر انتصار الإسلام لا يكمن في المواجهات العسكرية ، بل في تبليغ مبادئه ونشرها بين الناس ، ولذلك فقد أمر الله - سبحانه وتعالى - المسلمين بقبول أي اقتراحٍ للصلح والمهادنة يتقدم به الفريق الآخر فى أى وقتٍ ، وبغض النظر عن كل المخاوف الأخرى ، لأن المخاوف ليس من المؤكد أن تتحقق فعلاً ، بينما يحتوي وقف العمليات الحربية على فائدةٍ حتمية أكيدةٍ، تتمثل في أن يستأنف الإسلام نشاطه الدعوي في جوٍ يسوده الأمن والسلام ، وهكذا سيصبح وقف الحرب عاملاً قوياً على تمكين الإسلام من التوسع النظرى وبسط نفوذه الفكرى والعقدى.

إن الإسلام فى ذات نفسه هو القوة الكبرى، فلو أن طائفةً ما ، أخذ الإيمان بالله والآخرة مأخذه من قلوب أفرادها ، لنزع هذا الإيمان من داخلهم كل تلك النقائص والمساوئ النفسية التى تؤدى إلى التنافر والتصادم مع بعضهم البعض ، والذى يحدث بعد ذلك بطبيعة الحال هو أن يرتبط الجميع بعضهم ببعض ارتباطاً وثيقاً يحولهم وحدةً واحدةً لا تتجزأ ، وإنها لحقيقة لا جدال فيها أن الاتحاد هو القوة الكبرى وأن الجماعة المتحدة ، مع كونها قليلة العدد ، تغلب الجماعة الكثيرة العدد المنقسمة على نفسها. إن الوحدة فى الصفوف ، والألفة بين القلوب لمن أصعب الأمور ، بل أصعبها إطلاقاً ومن أمارات الطائفة المنصورة المظفرة أن يكون أفرادها من الاتحاد والتآلف فيما بينهم، بحيث لا يتمكن شيء ما من تشتيت وحدتهم ، وتمزيق صفوفهم وتقسيم كلمتهم أبداً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ۝٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ

مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٥﴾

حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ: بالغ في حثهم.

السرّ في غلبة القلة المؤمنة على الكثرة غير المؤمنة يكمن - كما أشارت إليه الآية - فى كون أهل الإيمان أصحاب فقهٍ،وكون غير المؤمنين محرومين من الفقه،ومعنى ((الفقه)) اللفظي هو الفهم، وقد أريد به تلك البصيرة والشعور اللذان يحظى بهما إنسان نتيجة الإيمان،فإن مثل الإيمان بالله ، بالنسبة لامرئٍ ما، كمثل إضاءة لمبةٍ كهربائية في حجرةٍ مظلمةٍ، إن اللمبة لا تلبث أن تنير الحجرة بأكملها، بحيث يبدأ كل شيء فيه يتراءى لك كأوضح ما يكون،وكذلك الإيمان يمنح صاحبه شعوراً ربانياً ، يأخذ معه ينظر إلى الحقائق كلها في صورها الأصلية.

فمن نتائج الإيمان أن المرء يدرك حقيقة الحياة والموت ، ويصبح عارفاً حق المعرفة بأن ليس المهم هو هذه الحياة الدنيا ، بل الحياة الآخرة ، مما يجعله شجاعاً مقداماً إلى أقصى حدٍ وهو يأخذ ينظر الآن إلى الموت على أنه مدخل إلى الجنة ، فإن المؤمن يعد الشهادة طريقاً مختصراً نحو الجنة ، وبالتالي يعود الاستشهاد أو التضحية بالنفس في سبيل الله شيئاً مطلوباً ومحبباً إليه !! على حين أن جنة غير المؤمن هي هذه الدنيا الراهنة، فهو يحب الحياة ويحرص عليها حتى يتمكن من الاستمتاع بجنته هذه ، إن الرجل غير المؤمن يناضل مدفوعاً بالشعور القومي ، بينما يناضل المؤمن مدفوعاً بالحنين إلى الجنة ، وأبداً لن يستميت المدفوع بالشعور القومي في نضاله استماتة المؤمن التوّاق إلى الجنة !!

إن المؤمن هو الإنسان الخائف من الله ، المشغول البال بهمّ الآخرة ، ومن شأن هذا المزاج أن يطهره من كل العواطف والمشاعر السلبية على اختلاف أنواعها ، حيث إنه يسمو بنفسه فوق دوافع النفس البشرية كالعناد والكراهية ، والتعصب ، والانتقام ، والبطر والكبرياء ، وما إلى ذلك.

ومن ناحيةٍ أخرى فإن أمر غير المؤمن يكون على النقيض من ذلك تماماً،مما ينتج عنه

أن غير المؤمن يصدر في مواقفه وتصرفاته عن النفسيات السلبية،والمؤمن يصدر في مواقفه وتصرفاته عن النفسيات الإيجابية، ويعمل غير المؤمن بالأسلوب العاطفي ويعمل المؤمن بالأسلوب الواقعي،وغير المؤمن يكون عدواً للناس، والمؤمن عدو لما فيه الناس من شرٍ وسوءٍ، وتتسم معاملة غير المؤمن مع الآخرين بالشحّ والأثرة، ومعاملة المؤمن بالكرم والتسامح.. وإنما تدل كلمات: المائة فى مواجهة الألف،والألف فى مواجهة الألفين ، على أن حكم القتال موجّه إلى الجماعة والجيش المنظم، إذاً فليس من الصواب ولا من المعقول أن يتصدى للقتال إذا لم يكن هناك سوى رجلٍ أو رجلين !!

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾

يُثْخِنَ: يبالغ في القتل حتى يذل الكفر .

عَرَضَ الدُّنْيَا: حطامها بأخذكم الفدية .

في خلال معركة بدرٍ قتل المسلمون سبعين من كبار رجال الكفر ، وأسروا منهم سبعين عندما بدأت تتزلزل أقدامهم فولوا هاربين ، وكان معظم هؤلاء الأسرى من رؤساء مكة وقادتها ، وفي أعقاب الحرب استشار النبي ﷺ الصحابة بشأن هؤلاء الأسرى ، فذهب أغلبهم إلى أن يتم إطلاق سراحهم لقاء الفدية.

إن أعداء الإسلام يومئذٍ كانوا قد أثاروا حالة حربٍ مستمرةٍ ضده ، ولكن المسلمين بسبب فقرهم وضيق ذات أيديهم لم يكونوا يملكون من أدوات الحرب، إلا قليلاً جداً ، فزعموا أنهم إن أخذوا الفدية ، أمكنهم أن يشتروا بها ما هم في أمس حاجةٍ إليه من

سلاحٍ وأدوات حربٍ ، وكان عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ - رضى الله عنهما - قد ذهبا إلى غير هذا الرأي ، حيث قال عمر، يا رسول الله : إن هؤلاء الأسرى هم أئمة الكفر وصناديد المشركين ، يعني أن قوة الأعداء الرئيسية قد وقعت اليوم في أيدينا ، فلنسترح منهم بضرب أعناقهم ، غير أن رسول الله ﷺ أخذ بالرأي الأول. ثم نزلت في أعقاب ذلك آيات عتاب شديد من الله ، لكن الآيات أباحت الانتفاع بما أخذوا من فداء!!

ومع أن إطلاق سراح أسرى الحرب مقابل الفدية ، كان يميل إلى جانب الرحمة والشفقة ، إلا أن ذلك كان يتعارض مع أمر الله بقمع جذور الكفر والشرك ، ولأجل تحقيق هذا الهدف ذاته جمع الله قادة قريش قاطبةً ، ما عدا أبا لهبٍ وأبا سفيان في ساحة بدرٍ، وهيأ هناك ظروفاً استمكنت معها أيدي المسلمين من خناقهم . ولو أن هؤلاء القادة تم القضاء عليهم حينذاك لوئدت مقاومة الكفر والشرك في ميدان بدرٍ ذاته إلى غير رجعةٍ ، ولكن لم يكد يطلق سراح القادة ، حتى أقبلوا على استجماع قواهم وإعادة تنظيم صفوفهم ، وبالتالي استأنفوا حركة مقاومتهم ضد الإسلام من جديد!!

وقد كان قرار الفداء خلافاً للمصلحة الحربية ، وكان خليقاً أن يجلب للمسلمين مصائب جسيمة ، حيث كان بإمكان هؤلاء القادة وأتباعهم أن يهاجموا الإسلام ، ولا يزالون به حتى يفسدوا عليه أمره كله ، لولا سبق التقدير من الله لآخر رسله وأصحابه أنهم سيظلون حتماً هم الغالبين ، وأنه لن ينجح أحد في قهرهم والتغلب عليهم على أية حالٍ ، وللسبب ذاته لم تستطع قريش إحراز الغلبة على أهل الإيمان - بالرغم من هذا التهاون الذي بدر منهم في الاستراتيجية الحربية ، ولم يحدث في نهاية المطاف إلا ما كان قد كُتب عند الله مسبقاً أنه كائن لا محالة ، ألا وهو انتصار المسلمين وغلبة الإسلام !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ

خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ: فأقدرك عليهم يوم بدر.

إن إطلاق سراح أسارى بدرٍ، مقابل الفدية، كان بالنسبة إلى المسلمين خطأً حربياً فادحاً، ولكن بالنسبة إلى الأسارى أنفسهم، كان ذلك مرادفاً لإتاحة حياةٍ جديدةٍ لهم، حيث كان معنى ذلك: أن الذين كانوا قد استحقوا الهلاك جزاء عنادهم ومخالفتهم للحق، قد سنحت لهم الآن فرصة أخرى ليعيدوا النظر في الدعوة الإسلامية وموقفهم المنحرف إزاءها، وقد فتحت هذه المهلة باباً جديداً لإصلاح أنفسهم.

والآن فقد كان هؤلاء الأسرى بين اثنتين: فإما أن تمتلئ قلوبهم غيظاً وحنقاً على الهزيمة النكراء التي لحقت بهم، ويستأثر بهم إحساس الذل والعار الذي أصابهم بسبب الفداء، فيتحرقوا للأخذ بالثأر، وشفاء حزازات النفوس، وفي هذه الصورة سوف لا يسعهم إلا أن يعيدوا الخطأ نفسه الذي كانوا قد تعرضوا من أجله لبطش الله، فسيبذلون قواهم وطاقاتهم ضد الإسلام، مما يؤدي بهم إلى الهلاك والدمار في هذه الدنيا، والعذاب المهين فى الدار الآخرة!!

وأما الصورة الثانية فهى: أن يفكروا في الواقعة غير العادية التي شهدها ميدان بدرٍ، ويقفوا عندها وقفة تأملٍ وتدبرٍ، يسألوا أنفسهم عمن السبب وراء إحراز المسلمين ذلك الانتصار الباهر والفتح المبين، رغم كونهم أقل منهم عدداً وأضعف منهم قوةً ؟! فيتضح من ذلك بجلاءٍ أن الله مع دين المسلمين وليس مع دين قريشٍ، وإنْ تولدت هذه العقلية الثانية فستدفعهم إلى أن يغيروا موقفهم السابق، ويختاروا الآن الدين الذي لم يوفقوا لاختياره من قبل، وبالتالي يصبحوا أهلاً لإنعام الله في الدنيا والآخرة.

والتاريخ يشهد بأن عدداً لا بأس به من قريشٍ، سرعان ما فوجئوا بسيطرة التساؤل المذكور على أذهانهم، فما لبثوا أن دخلوا في الإسلام عاجلاً أو آجلاً، فقد اعتنق العباس بن عبد المطلب الإسلام وهو أسير، وهناك أناس آخرون قد انضموا إلى

صفوف المسلمين فيما بعد ، ومع أن هؤلاء قد ذلوا وهانوا فى نظر العصبية الطائفية إلا أنهم نالوا العزة والكرامة في عين الله ، كما أنهم صاروا أهلاً لنعيم الآخرة وأرباحها عوضاً عما تحملوا من خسائر الدنيا وأذاها في سبيل الله.

وبسبب إطلاق سراح الأسارى كان المسلمون يساورهم القلق والخوف من أنهم لن يقابلوا هذا الإحسان بالاعتراف والشكر ، بل سيشكلون عقبةً صعبةً في سبيل الإسلام باستئنافهم من جديدٍ أعمال التخريب والمؤامرة ضده كسابق عهدهم ، غير أن القرآن لم يعط أية أهمية لهذا التخوف ؛ لأن الحركة التي تقوم من أجل الحق الخالص ، لا تكون حركة إنسانيةً من الطراز العام ، إنما تكون أمراً إلهياً ، ويقف إلى جانبه يتعهده ويرعاه الله - سبحانه وتعالى - وإنه ليس بمقدور أحدٍ أن يتعرض للقتال مع الله عز وجل !!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ ﴾

إن المرء إذْ يقدم العون إلى أحدٍ ، فإنما يكون الباعث على ذلك كون هذا الرجل من أعضاء أسرته ، أو وجود أية علاقةٍ طائفيةٍ وحزبيةٍ بينهما ، غير أن المجتمع الإسلامي الذي ظهر إلى الوجود بالمدينة في أعقاب الهجرة النبوية ، كان مجتمعاً فريداً من نوعه ؛ حيث وهب أصحاب المنازل فيه منازلهم لأقوامٍ لم تكن تربطهم بهم أية علاقةٍ أو رابطةٍ سوى الدين ، فلم يغادر المهاجرون إلى المدينة أوطانهم إلا لوجه الله وابتغاء ثواب الآخرة ، كما أن الذين جعلوا هؤلاء الغرباء ((الأجانب)) شركاء في أموالهم وضياعهم إنما بعثهم على ذلك الأمل في أن يرضى الله عنهم ، ويدخلهم فى يوم القيامة في جنات النعيم !!

في هذا المجتمع لم تكن الأهمية للأسرة والنسب ، بل للإيمان والإسلام فحسب ، فقد كان أفراده يتعاونون بعضهم مع بعضٍ ، ولكن ليس من أجل المنفعة الدنيوية ، بل من أجل منفعة الآخرة ، وكان بعضهم يعطى بعضاً ، ولكن ليس أملاً في نيل الجزاء من الآخذ ، بل رجاء إنعام الله وفضله.. والمجتمع الإسلامي الحقيقى هو الذى لا تقوم العلاقات فيه على الروابط الأسرية والعصبيات الطائفية ، بل تقوم على أساسٍ من الحق والحق وحده ، وحيث ينصر الرجل غيره على أنه أخوه في الإسلام ، لا على أن مصلحةً من مصالحه الدنيوية ترتبط به.

إن من واجب المسلم أن ينصر أخاه المسلم إذا ما استنصره في أمر الحق ، ولو أن روح التعاون والمناصرة هذه لم تعد باقيةً بين المسلمين ، لاجترأ الأشرار على قهر المستضعفين من أهل الإسلام واضطهادهم ، ولصار الإبقاء على حياتهم وإيمانهم أمراً عسيراً جداً.

إن أعداء الحق أشد ما يكونون تعصباً لنجدة أصحابهم ، وإذًا فلم لا ينشط أنصار الحق لنجدة أصحابهم؟!إن «الهجرة» هي مدخل إلى الجنة ، وإن عبداً ما حين يغادر المقام غير المحبب إلى الله وينتقل إلى المقام المحبب إلى الله ، فإنما يغادر في الحقيقة غير الجنة ليدخل إلى الجنة!

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۖ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾

وَأُوْلُو الأَرْحَامِ: ذوو القرابات .

أَوْلَى: بالميراث من الأجانب .

إن الإيمان بالله هو تصميم على العيش لله وبالله ، وأمثال هؤلاء غالباً ما يصيرون غرباء بين أولئك الذين يعيشون لأى شيء آخر غير الله - تعالى ، وهذه الغربة ربما تزداد وتشتد لدرجة أن أصحاب الإيمان يُضطرون معها إلى الهجرة ، حيث تتحول حياتهم كلها ، إلى سلسلةٍ من الكفاح والنضال مستمرةٍ، وهؤلاء هم المؤمنون الصادقون عند الله تعالى.. ثم يلحق بهم فى الوصول إلى درجة الإيمان الصادق أولئك الذين يشدون من أزرهم ، والذين يقومون بإيوائهم ويقدمون إليهم كل مساعدةٍ ممكنةٍ .

ويتضح من هذا أن المرء لكي يكون مسلماً حقاً ، يتعين عليه أن يقيم الدليل - على الحد الأدنى - على أحد شيئين : فإما أن يربط المرء نفسه بالإسلام على نحوٍ لا يتحرج معه حتى من تحطيم دنياه العامرة الجميلة التي أفنى عمره في تشييدها ، ومن تحويل عيشته الراضية الهادئة إلى عيشةٍ كلها تعب ونصب.. وإمّا أن يكون من الذين يمدون يد العون والنصرة لمن يأتونهم وقد ضحوا بكل ما يملكونه من أجل الإسلام ، وتتسع صدورهم حتى لجعلهم شركاء متساوين في أموالهم وعقارهم.

إن الإيمان الصادق لن يظفر به أحد إلا على مستوى ((الهجرة)) ، وإلا على مستوى ((النصرة)) ، وليس بعدهما إلى الإيمان الصادق من طريقٍ ثالثٍ.. وهذان الصنفان من البشر هما اللذان وعدهما الله بالمغفرة والرزق الكريم ، إن الجنة الآتية في اليوم الآخر هي عالم متناهٍ في الروعة ، إنها عالم كامل ، وبالطبع فليس يجدر بالسكنى في العالم الكامل إلا الذين هم بحد ذاتهم كاملون ، وليس هناك من أحدٍ يستطيع إقامة الدليل على مثل هذا الكمال بسبب نقائصه البشرية ، بيد أن الله - سبحانه وتعالى - قد وعد لمن نجح على أي من المستويين المذكورين أن يدخله الجنة بعد أن يمحو عيوبه ويغفر نقائصه بقدرته التي لا تحد.

ومع أن نصرة المتآخين على أساس الدين وحمايتهم أمر بالغ الأهمية ، غير أن ذلك لن

يطغى على حقوق ذوي الأرحام ، ولا على توزيع الميراث بينهم ، ولا قيمة عند الله البتة لأشياء يعدها شخص ما - بدافع هواه - أنها ضرورية لأعضاء أسرته ، ولكن قانون الله الذى قرره - سبحانه وتعالى - في كتابه عن حقوق ذوى الأرحام وتوريثهم ، سيظل قائماً على كل حالٍ ، ولن يقوم شيء ما عذراً دون تنفيذه كما هو من غير تبديل ولا تعديل.